

القاشاني الاسلامي القديم

بقلم الاب فردينان توتل البسوي

قال ياقوت : « قاشان بالشين المعجمة وآخره نون مدينة قرب اصبهان منها تجلب العضاير القاشاني . » راني اتخذت من ثم كلمة قاشاني تعريباً للفظه سيراميك (*Céramique*) ومعناها ، في عرف الافرنج ، الفن المختص بصنع الخزف او الآجر او الفخار بطرائق عليية ، وهو يشمل منتجات الصناعة في هذا الصنف من الدارسيني والمينا وغيرها . ولم اجد في ما كتب من حديث^(١) وقديم في وصف الخزاف البنائيه ومنشآتها لفظاً اصطلاح عليه العرب للتعبير عن معنى ذلك الفن الجميل ، وقد تعاطوه على مدى الاجيال ، ونبغوا فيه حتى باروا بحذاقهم اعظم الصناع في هذا الفن من سائر الشعوب . قال غاستون ميغون^(٢) :

« ما من درس يستنوي العلماء استفوا . سيراميك الشعوب الاسلامية لطلاب الخزاف الجميلة المتنوعة . فانها لايات تشهد لاصحابها بالمهارة وبسلامة الذوق في صنع القاشاني ، وتحسين المينا ، وتنسيق الالوان . مما يدل على انهم وقفوا على اسرار العظمة في فن التوشية ، وفي تصوير الانسان والحيوان والنبات ، وغير ذلك من اشكال هندسية وخشبية ، ونسجوا لها من الجمال حلة لم يسبقهم اليها فن من الفنون . »

واليك ، على صفحات المشرق ، صوراً لبعض المصنوعات القاشانية اخذناها من كتاب ميغون المذكور ومن كتاب آخر ظهر حديثاً لكشكين . وهي مختلفة

(١) راجع عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني ' مصر ١٩٢٢ ' (ص : ٤٢ وما

G. Migeon : Les Arts musulmans (٢

بعدها)

المصادر زماناً ومكاناً^(١) منها من مصر ، ومنها من الشام او العجم . وان صاحب التاريخ المهتم باكتشاف فضل الشعوب بعضهم على بعض في ترقى الفنون والصناعة ، ينظر الى تلك الآيات الفنية ويسأل من اين هي ؟

ان رحلات عليية متفرقة افرنسية والمانية تقبت على آثار القاشاني في سوس ، وفي الري ، وفي سامرا ، وغيرها من الاماكن مثل بغداد ، ودمشق ، والقسطنطينية ، وفي الاناضول ، فعثرت على قطع عديدة جمعها وارسلتها الى اصحاب المتاحف في اوربة . فجبوا ريسها ما استطاعوا ، وفحصوها ، واقرؤا في امرها انها عراقية او عجمية الاصل بالاغلب . واستخرجوا من ثم ان التواتر لدليل على ان الفضل في صناعة القاشاني الاسلامي القديم يعود اولاً للعراق او للعجم .

ولكن ظهر حديثاً مقال في مجلة « اربتوز »^(٢) المختصة لدرس الماديات من تقود ، وخواتم ، وغير ذلك من الفنون ال اثرية ، اتى فيه صاحبه السيد «غالو» على تحليل مؤلف وضعه العلامة بوتلر الاستاذ في اكسفرود وقد تناول فيه البحث في اصل القاشاني الاسلامي القديم ، واستنتج منه ان مسقط رأس القاشاني هو ارض الفراعنة ، وهي التي لغت فنه الشعوب الذين احتلوا ارضها من رومان وعرب . فلا يرى اذا ان اصل القاشاني من بغداد ، ولا من الري ، ولا من القسطنطينية . واليك بعض براهين على ذلك :

في العام ٦٦٢ بنى المنصور مدينة بغداد فصارت عاصمة الخلافة سحابة خمسة قرون . وشاد فيها قصرأ وفي وسطه قبة زرقاء . واستجلب لينا . القصر الصناع من فارس وبابل والشام والموصل . ومضت الايام ، واحتل الاتراك العاصمة فانظر المتعجب الى ان يبجر بغداد الى سامرا . وها ان اعمال التنقيب ، بعد نيف عن الف ومئة سنة ، قد كشفت في يومنا عن قطع من القاشاني في غاية ما انتهى الفن اليه من اتقان . هي صحن قطبية مزخرفة اشبه بالاراني المعدنية ، والواح بلاط مفساة بالمينا البيضاء . الكثيفة اللامعة ، أف تكون بغدادية الاصل ؟ كلا لانها اتقن فناً ، واجل صنأ ، من ان يأتي بها من هم حديثو العهد بالصناعة . نعم لقد وجدت في بغداد ، إنما اتها من الخارج وان ما يقال عن آثار بغداد

لصحيح أيضاً . في ما ينسب الى سامرا . وليس اصل ذلك القاشاني من الريّ او من بلاد الفرس . وليس ما ينسبه ياقوت الى الريّ من امثال تلك الآثار الفنية دليلاً قاطعاً على انها نشأت في المعجم . جاء في معجم البلدان :

« اما الريّ المشهورة فاني رأيتها وهي مدينة عجبية الحسن مبينة بالأجر المنقح المحكم الملمع بالزرق مدهون كما تدهن الغضائر في فضاء من الارض ... وكانت مدينة عظيمة خرب اكثرها . واتفق انني اجترت في خرابها سنة ٦١٢ (١٢٢٠م) ، وانا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائماً ومنابرها باقية وتراويق الحيطان في حالها لقرب عهدنا بالحرب »

ومعروف ان التتر دسروا مدينة الري مرتين سنة ١١٨٦م . اما الشهيدة من الاواني الخزفية التي اكتشفوها فيها فمعهدا يرقى الى ما بعد دمار المدينة ، الى ١١٨٩ ، والى ١٢١٠ ، والى ١٢١٧ ، فليس من المعقول انها حُصنت فيها اذ يكون الاهلون في مثل تلك الايام العصية مشغولين عن الزخارف الكهالبة بالحاجيات . قال المؤلف : ولم تكن مدينة الفسطاط في مصر القديمة مسقط رأس القاشاني الاسلامي القديم ، لان الفسطاط كانت حصناً رومانياً فانتخذه عمرو بن العاص مقاماً له . وليس في آثار الفسطاط دليل قاطع على وجود معامل للقاشاني الاسلامي القديم فيها ، لان المرء يعثر في انتاضها على انواع من الفخار الشقي منها العربي ومنها الصيني . ولما كان وجود الصيني غير جازم بوجود ممثل للفخار الصيني في الفسطاط ، كذلك ليس من المؤكد ان وجود القاشاني العربي لدليل بات على ان منشأ القاشاني الاسلامي هو الفسطاط .

وفي الحالة التي ارجعنا اليها العلم قد يكون من المعقول انه كان في مصر في اواخر العصر البيزنطي ، وفي اوائل الاسلام ، صنّاع عربية الخبرة في صنع القاشاني ، متعلمون استعمال المعادن في صنع الفخار منذ القدم . فيكون من ثم اصل القاشاني الاسلامي القديم من وادي النيل ... هذا ما لم تحدث اكتشافات جديدة في قبطنية ، او في انطاكية أم الشرق ، او في الريّ ، فتخطرنا الى القول عند حكم جديد ، وسبعان من تترّه عن الضلال .